كتب الرحلات وأثرها في التبادل الحضاري بين مملكة غرناطة الأندلسية والمشرق العربي

د. صالح مهدي عباس الخضيري *

عرفت الكتابة الجغرافية في الأندلس في القرن الرابع الهجري عندما وضع أبـــو عبـد الله محمد بن يوسف الوراق الملقب بالتاريخي (ت ٣٦٢ هـ) كتابا في الجغرافية ثم توالت المولفـــات الجغرافية الأندلسية حتى توجت برحلة الجغرافي الشهير ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) وفي عصر مملكة غرناطة (٦٣٥ هـ – ٨٩٧ هـ = ١٢٣٨ م-١٤٩٢ م) صنف الكثير مـــن المولفـات الجغرافيـة مواغلبها ألف عن طريق الأسفار والرحلات الدينية والعلمية فكان تراثا اندلسيا رائعا تفتخـــر مملكـة غرناطة في ظل ملوكها بني الأحمر ،اللذين عرفوا بتشجيعهم للعلوم والآداب فجاء نتاجهم متميزا قد بلغ من النضج الفكري والشهرة العلمية ،وأصبح مقصودا لكثير من الدراسات فـــي العـــالم العربـــي الإسلامي وخارجة . وكان من أبرز كتب تلك الرحلات هي :

- النفحة المسكية في الرحلة المكية –لأبي علي بن سعيد الغرناطي (ت ٦٨٥ هـ)
- ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلي الحرمين مكة وطيبة – لأبن رشـــيد الفـــهري (ت٧٢١ هـ)
- مستفاد الرحلة والاغتراب – للقاسم بن يوسف التجيبي (ت٧٣٠)
- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق – لأبي البقاء خالد بن عيسى البلنتوري (ت٧٦٨هـ)
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار –لابن بطوطة (ت٧٧٧ هـ)
- تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلي أعلي المنازل والمناقب – للقلصادي (ت٨٩١ هـ)

إن المعلومات المدونة في هذه الرحلات شملت الجوانب الحضارية كافة ،ولم يقتصر مؤلفوها علـــي وصف وعورة الطريق وصعوبة المسالك وظاهرة النهب والسلب من قطاع الطـــرق ،إنمـــا تطـــرق مؤلفوها إلي ذكر المراكز الثقافية في المدن ،وما رافق ذلك من ذكر الفوائد العلميـــة عـــن الشـــيوخ والأخذ منهم ،ومعرفة الأسانيد ،ونقد الشعر ،وذكر مؤلفات العلماء التي سمعوها منهم ،مع كثير مـــن المصطلحات والألفاظ الحضارية، فضلا عن التمتع بالخزائن العلمية ،مما يكون حياة ثقافية لكـــل مدينة نزلوا بها . كما تناولوا المعلومات الجغرافية النافعة ، ووصف الناس والعمـــران والعـــزارات وقبور الصالحين والقلاع والحصون مع ذكر عدد كبير من أسماء المدن التي مروا عليها من مثـــل : المرية وتلمسان والجزائر وتونس والإسكندرية والقاهرة وقوص والمدينة ومكة وبيت المقدس والكرك والرملة وعسقلان ..... وأن تعجب فعجب إجادة هذه الكتب في وصف العجائب والغرائب ،ومـــا لا نجده في كتب البلدان والجغرافية من مثل وصف مدينة القاهرة ،ومنـــار الإسـكندرية ،وبارمستان القاهرة ،أو وصف قوص ..... وفي البحث الكامل تفاصيل مهمة لكل ما ذكرت .

* مركز إحياء التراث العلمي العربي – جامعة بغداد .